بسم الله الرحمن الرحيم

علوم اللغة

دراسات علمية محكّمة تصدر أربع مرات فى السنة

كتاب دورى

مج٩، ع٢، ٢٠٠٦

قيمة الاشتراك السنوى:

٨٠ جنيها مصريا (داخل جمهورية مصر العربية)

٨٠ دولارا أمريكيا (خارج جمهورية مصر العربية شاملا البريد)

سعر العدد:

٢٠ جنيها مصريا (داخل جمهورية مصر العربية)

٢٠ دولارا أمريكيا (خارج جمهورية مصر العربية شاملا البريد)

أسعار خاصة للطلبة:

المراسلات:

توجه جميع المراسلات الخاصة إلى:

دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع

ص. ب (٥٨) الدواوين - القاهرة ١١٤٦١ القاهرة - جمهورية مصر العربية

تليفون ٧٩٤٢٠٧٩ فاكس ٧٩٥٤٣٢٤

المحتويات

البحوث ... الصفحة

المدة الزمنية للوقف بالسكت في قراءة حمزة ٩
د. يحيى بن علي المباركي

الاستماع والتحدث والقراءة والكتابة ٤٩
د. سمير بن يحيى المعيز

حكايات نشأة النحو ١٠٩
د. محمد سعيد صالح الغامدي

التقابل الدلالي ١٣٥
د. نوال بنت إبراهيم بن محمد الحلوة

إعراب الاسم المرفوع بعد (إن) و(لو) ٢١١
د. نهلة حسين إمام

الأمر عند النحاة. الأمر في الفصحى. دراسة لغوية ٢٤٩
د. علي محمد هنداوي

علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق ٢٨٥
د. نادية رمضان النجار

حكايات نشأة النحو

د. محمد سعيد صالح ربيع الغامدى
قسم اللغة العربية ـ كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة الملك عبد العزيز ـ جدة

تمهيد:

للأخبار والحكايات في تراثنا العربي أثر واضح ملموس في تبلور مفاهيم التراث في الأذهان على صورة ما، مثلما أن لصور مفاهيم التراث المستقرة في الذهن أثر في صنع حكايات ملائمة لهذه الصور ومثبتة لها.

فالعلاقة بين الحكاية والمفاهيم جدلية، لا يُعْلَمُ على وجه الدقة أحياناً أي الأمرين صنع الآخر، ولا أيهما المتقدم أو المتأخر. وسيتضح عند تأمل ما ورد عن «نشأة النحو» من حكايات أطراف من هذه الآثار، لعلنا نصل من خلالها إلى ضرورة إعادة اكتشاف مفاهيم تراثنا أو جزء كبير من جديد بلا ضغطٍ من الحكاية أو ضغطِ الصور المتبلورة في الذهن سلفاً.

ويلحظ المتتبع لحكايات «نشأة علم النحو» ارتباطها الوثيق بحكايات أخر، هي حكايات ظهور بعض مظاهر الفساد واللحن في العربية. والعلاقة بين النوعين ظاهرةٌ في أن علم النحو إنما أنشيء لمقاومة اللحن والفساد اللغوي. وسنحاول في هذه الورقة الوقوف على طبيعة تلك العلاقة. وذلك يقتضي تتبع حكايات اللحن، ثم التأمل في حكايات النشأة وما يرتبط بها من الحكايات التي تتحدث عن أول مَن أقدم على وضع

العلم، وغرض وضعه، وكيفيات الوضع. وأرجو أن يسهم ذلك في إيضاح الفكرة التي تقوم الورقة على إيضاحها.

حكايات اللحن:

ترد في كتب اللغة والتراجم والتأريخ وبعض كتب النحاة وغيرها مرويات متعددة، تحاول رصد أول ظهور للحن على ألسنة المتكلمين بالعربية. يعود بعض هذه المرويات باللحن إلى عصر الجاهلية، وبعضها إلى زمن النبي صلى الله عليه وسلم، وبعضها إلى عهد الخلفاء الراشدين. ويحكي بعضها مظاهر للحن في زمن الفصاحة والاستشهاد المتفق عليه التالي لهذه العصور.

نُقل في بعض الروايات ما يفيد أن مظاهر من اللحن والخطأ في اللغة عرفت عند العرب في العصر الجاهلي. فقد «روى أن الشيخ المحترم في العرب كان إذا لحن لم يصوبوا كلامه احتراماً له. بل كانوا كثيراً ما يقلدونه في الخطأ»[1].

وفي عهد النبوة روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع رجلاً يلحن في كلامه فقال: «أرشدوا أخاكم فإنه قد ضل»[2]. ومع أن الرافعي يستنتج من لفظ الضلال الوارد في الحديث أن اللحن لم يكن معروفاً قبل

---

(١) سليم، عبد الفتاح: المعيار في التخطئة والتصويب، ط١، القاهرة: دار المعارف، سنة ١٩٩١م (ص٤١). وذكر المؤلف أن هذا النص نقله من مجلة المجمع اللغوي ـ البحوث والمحاضرات، الدورة ٣٥، ولم يعثر على الرواية في غير هذه البحوث.

(٢) الهندي، على المتقي بن حسام الدين: كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، تصحيح الشيخ صفوت السقا، ط١، حلب: مكتبة التراث الإسلامي، سنة ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م (١/ ١٥١). وفي بعض المصادر بلفظ: «فقد ضل». انظر السيوطي، عبدالرحمن بن أبي بكر، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق فؤاد على منصور، ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، سنة ١٩٩٨م (٢/٢٤٢).

هذا العهد، وأن هذه الحادثة أولى حوادث اللحن[٣]، تنصُّ بعضُ المصادر على وزود لفظ «اللحن» فى كلام النبى صلى الله عليه وسلم بما يدل على أن الظاهرة عُرفت فى عهد النبوة وقبله، كحديث: «أنا من قريش ونشأت فى بنى سعد فإنّى لى اللحن»[٤]. وحديث: «رحم الله امرأً أصلح من لسانه»[٥].

وقيل: قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه: لأن أقرأ وأسقط أحب إلى من أن أقرأ وألحن[٦]. ورووا أنَّ أحدَ ولاة عمر بن الخطاب كتب إليه كتاباً به بعضُ اللحن. فكتب إليه عمر: «أنْ قنّع كاتبك سوطاً»[٧].

وعنه أنه قال: «تعلَّموا النحو كما تَعلَّمون السنن والفرائض»[٨]. وأنه قال: «من قرأ القرآن فأعرب به فمات كان له عند الله يوم القيامة كأجر شهيد»[٩]. وروى أيضاً أن عمر رضى الله عنه مرَّ بقوم يرمون، فأساؤوا الرمى. فقال: بئس ما رميتم. قال بعضهم: إنا قوم متعلمين. فقال:

(٣) الرافعى، مصطفى صادق. تاريخ آداب العرب، طـ٤، سنة ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م (٢٤٢/١).

(٤) المزهر ٣٤١/٢.

(٥) ينظر: الخثران، عبد الله حمد. مراحل تطور الدرس النحوى، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، سنة ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م (ص ١٥).
ويلاحظ أن أحاديث اللحن لم تذكرها كتب الأحاديث المعتبرة. انظر قدور، أحمد محمد. مصنفات اللحن «التثقيف اللغوى حتى القرن العاشر، منشورات وزارة الثقافة السورية، سنة ١٩٩٦م (ص ٥٣).

(٦) ابن أبى هاشم، عبد الواحد بن عمر. أخبار النحويين، تحقيق مجدى فتحى السيد، طـ١، طنطا: دار الصحابة للتراث، سنة ١٤١٠هـ (ص ٣٥).

(٧) ابن جنى، أبو الفتح عثمان. الخصائص، تحقيق محمد على النجار، طـ٣، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ١٤٠٨هـ (٨/٢).

(٨) الجاحظ، عمرو بن بحر. البيان والتبيين، دار الفكر للجميع، سنة ١٩٦٨م (١٧١/٢).

(٩) أخبار النحويين لابن أبى هاشم ص ٣٦.

«إساءتكم فى لحنكم أشدُّ من إساءتكم فى رميكم»(١٠). وعن على رضى الله عنه أنه كان يشيع جنازة، فقال له قائل: من المتوفى؟ بالياء(١١). وكان رجل إلى جنب ابن عمر فلحن، فأرسل إليه: إما أن تتنحى عنا وإما أن نتنحى عنك(١٢). وروى أيضاً أن ابن عمر وابن عباس كانا يضربان أولادهما على اللحن(١٣).

وروى أن رجلاً دخل على زياد بن أبيه فقال: «إن أبينا هلك، وإن أخينا غصبنا ميراثنا من أبانا»، فقال: «ما ضيعت من نفسك أكثر مما ضيعت من مالك»(١٤). وروى عن الحجاج أنه سأل يحيى بن يعمر: هل يلحن فى نطقه؟ فأجابه بأنه يلحن فى حرف من القرآن؛ إذ كان يقرأ قوله تعالى ﴿ قُلْ إن كانَ آباؤُكُمْ وأبْناؤُكُمْ ﴾(١٥) إلى قوله ﴿ أحبُّ ﴾(١٦) بضم أحب.

---

(١٠) الأنبارى، أبو بكر. إيضاح الوقف والابتداء، تحقيق محى الدين رمضان، مطبوعات المجمع العلمى بدمشق، سنة ١٣٩٠هـ / ١٩٧١م (١/ ٢١ ـ ٢٢).

(١١) السبكى، أبو نصر عبد الوهاب. طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق عبد الفتاح الحلو ومحمود الطناحى، ط٢، دار هجر للطباعة والنشر، سنو ١٩٩٢م (١٠/ ٦٨).

(١٢) أخبار النحويين لابن أبى هاشم ص ٣٠.

(١٣) نفسه ص ٣٧.

(١٤) البيهقى، المحاسن والمساوىء، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: دار نهضة مصر للطباعة، سنة ١٣٨٠هـ (٢/ ١٥٩).

(١٥) من الآية ٢٤ من سورة التوبة.

(١٦) ينظر: الجمحى، محمد بن سلام. طبقات فحول الشعراء، تحقيق محمود شاكر، دار المدنى (١/ ١٣). ،الزبيدى، أبو بكر محمد بن الحسن. طبقات النحويين واللغويين، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، القاهرة: دار المعارف (ص ٢٢). ويستنتج الدكتور شوقى ضيف من مجرد سؤال الحجاج يحيى بن يعمر هذا السؤال أنه يدل على ما استقر فى نفسه من أن اللحن أصبح بلاء عاماً، وإذا كان الحجاج وهو فى الذروة من الخطابة والبيان والفصاحة والبلاغة يلحن فى حرف من القرآن فمن وراءه من العرب نازلة المدن الذين لا يرقون إلى منزلته البيانية كان لحنهم أكثر. انظر ضيف، شوقى: المدارس النحوية، ط٣، القاهرة: دار المعارف (ص ١١ ـ ١٢). ويتظر فى روايات لحن الوليد بن عبد الملك: البيان والتبيين ٢/ ٢٠٤، وابن قتيبة، أبو محمد عبدالله بن مسلم: عيون الأخبار، مصورة عن طبعة دار الكتب ١٩٦٣م (٢/ ١٥٨، ١٦٧)، ولحن بعض من أمهاتهم أعجميات فى: البيان والتبيين ١/ ٧٢، ٢/ ٢١٠.

من حكايات اللحن إلى حكايات الوضع:

لعل فكرة ظهور اللحن تستدعى فكرة ظهور مقاومته، وإن كنا نستطيع القول فى الوقت نفسه: إن فكرة إنشاء العلم تقتضى التفكير فى سبب الإنشاء وهو مقاومة مظاهر اللحن. من هنا لابد من تلازم النوعين بوجه ما. وأحد وجوه التلازم بين الأمرين كما أظهرته الحكاية هو تزامن ظهور اللحن مع ظهور العلم فى وقت واحد. ويتجلى هذا مثلاً من خلال حكايات أبى الأسود مع ابنته أو مع على رضى الله عنه التى سترد بعد قليل. ووجه آخر من التلازم تظهره الحكاية بتقدم ظهور أول مظهر من مظاهر اللحن قبل الإنشاء؛ ليمكن بعد ذلك تصور نشأة العلم بعد تزايد تلك المظاهر والخوف من ازدياد شيوع اللحن والفساد بصورة مدمرة. ووجه ثالث أيضاً يفترض استمرار مظاهر الفساد واللحن فى الزمن التالى، لتبقى أهمية العلم الذى يقاومه ويقى منه مستمرة.

تنسب أكثر الحكايات شيوعاً فى كتب التراث وفى كتابات الدارسين المحدثين، إنشاء علم النحو إلى أبى الأسود الدؤلى[١٧]، إلى الحد الذى أصبح به ذكر أبى الأسود لا يرتبط فى الأذهان إلا بنشأة النحو، مع أن حكايات أخر تنسب إليه إنجازات أخرى مهمة ومؤثرة فى تأريخ العربية، كما سيأتى.

---

(١٧) ينظر: ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم: الشعر والشعراء، بيروت: دار الثقافة، سنة ١٩٦٤م (٢/٦١٥)، والسيرافى، أبو سعيد: أخبار النحويين البصريين، تحقيق محمد إبراهيم البنا، ط١، دار الاعتصام، سنة ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م (ص ٢٨)، والقفطى، أبو الحسن على بن يوسف: إنباه الرواة على أنباه النحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، دار الفكر ومؤسسة الكتب الثقافية، سنة ١٤٠٦هـ (١/٧) وآل ياسين، محمد حسين: الدراسات اللغوية عند العرب، ط١، بيروت: دار مكتبة الحياة، سنة ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م (ص ٥٧ ـ ٦٤). والقوزى، عوض حمد: المصطلح النحوى، منشورات جامعة الرياض عام ١٤٠١هـ (ص ٢٨ ـ ٣٠).

بعض حكايات أبى الأسود تحصر حادثة اللحن التى استثارت فيه القلق والخوف من فساد العربية بينه وبين ابنته. وتأتى الروايات فى المصادر متقاربة المعنى وإن اختلفت الألفاظ، لكنها تتفق فى أن الحادثة تفضى إلى مباشرة وضع العلم حال وقوعها. يروى أنه دخل عليها مرة فقالت: يا أبت ما أشدُّ الحر. فقال: شهر ناجر (أى: صفر). فقالت: يا أبت، إنما أخبرتك ولم أسألك. فأتى على بن أبى طالب رضى الله عنه، فقال: يا أمير المؤمنين: ذهبت العرب لما خالطت العجم، وأوشك إن تطاول عليها زمان أن تضمحل. فقال له: وما ذلك؟ فأخبره خبر ابنته. فأمره فاشترى صحفاً بدرهم، وأملى عليه: الكلام كله لا يخرج عن اسم وفعل وحرف جاء لمعنى، وهذا القول أول كتاب سيبويه. ثم رسم أصول النحو كلها، فنقلها النحويون وفرعوها[18]. وفى رواية أنها قالت له: يا أبت ما أحسنُ السماء. قال: أى بُنية، نجومها. قالت: إنى لم أرد أى شىء منها أحسنُ، إنما تعجبت من حسنها. قال: إذاً فقولى: ما أحسنَ السماء. فحينئذ وضع كتاباً[19]. وفى رواية أخرى أنها قالت له: ما أشدُّ الحر. قال: الحصباء بالرمضاء. قالت: إنما تعجبت من شدته. فقال: أو قد لحن الناس؟ فأخبر بذلك علياً، فأعطاه أصولاً بنى منها، وعمل من بعده عليها[20]. أو أنها لما

(١٨) الأصفهانى، أبو الفرج: الأغانى، تحقيق سمير جابر، ط٢، بيروت: دار الفكر (٣٤٧/١٢)، وينظر: السيوطى، عبد الرحمن بن أبى بكر: سبب وضع علم العربية، تحقيق مروان العطية، ط١، دمشق: دار الهجرة، سنة ١٩٨٨م، (ص ٤٢ ـ ٤٣). والمثل السائر ٣١/١.

(١٩) سبب وضع علم العربية ص ٥٣، وينظر ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد. وفيات الأعيان وأنباء الزمان، تحقيق إحسان عباس، بيروت: دار الثقافة، سنة ١٩٦٨م (٥٣٧/٢).

(٢٠) الذهبى، أبو عبد الله محمد بن أحمد، سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرناؤوط ومحمد العرقسوسى، ط٩، بيروت: مؤسسة الرسالة، سن ١٤١٣هـ (٨٣/٤)، وابن الجوزى، أبو الفرج عبد الرحمن بن على: المنتظم فى تأريخ الملوك والأمم حتى سنة ٢٥٨هـ، تحقيق محمد ومصطفى عطا، ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، سنة ١٤١٢هـ/١٩٩٢م (٩٧/٦).

قالت: ما أشدُّ الحر، قال: الرمضاء فى الهاجرة. فقالت: لم أرد ذلك، وإنما أخبرتك بما هو فيه الآن. قال: فقولى إذاً: ما أشدَّ الحر[٢١]. ويبدو أنه لما اشتهرت هذه الحكاية المشتملة على محادثة يُخْرِج فيها اللحن التعجب مُخْرَجَ الاستفهام جعلت بعض المصادر التى تروى القصة أول ما وضع أبو الأسود من أبواب النحو «باب التعجب». قال صاحب الإصابة فى سبب إنشاء أبى الأسود علم النحو: «وكان الذى حداه على ذلك أن ابنته قالت له: يا أبت، ما أشدُّ الحر، وكان فى شدة القيظ. فقال: ما نحن فيه. فقالت: إنما أردت أنه شديد. فقال: قولى: ما أشدَّ. فعمل باب التعجب»[٢٢]. وفى اللسان: «قالت ابنة أبى الأسود الدؤلى لأبيها فى يوم شديد الحر: يا أبت ما أشدُّ الحر. قال: إذا كانت الصقعاء من فوقك والرمضاء من تحتك. فقالت: أردت أن الحر شديد. قال: فقولى: ما أشدَّ الحر. فحينئذ وضع باب التعجب»[٢٣].

ومثلما كان على بن أبى طالب رضى الله عنه طرفاً فى حكاية أبى الأسود مع ابنته على أكثر الروايات كان طرفاً أيضاً فى حكايات أخر تحصر القلق على مصير العربية بين الرجلين، ومن ثم العمل معاً على التصدى للحن. نقل عنه أنه قال: «دخلت على أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه، فرأيته مطرقاً مفكراً. فقلت: فيم تفكر يا أمير المؤمنين؟ قال: إنى سمعت ببلدكم هذا لحناً، فأردت أن أصنع كتاباً فى

---

(٢١) طبقات النحويين واللغويين ص ٨.

(٢٢) العسقلانى، أبو الفضل أحمد بن على: الإصابة فى تمييز الصحابة، تحقيق على محمد البجاوى، ط١، بيروت: دار الجيل، سنة ١٤١٢هـ/١٩٩٢م (٥٦٢/٣). وانظر: ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر: البداية والنهاية، بيروت: مكتبة المعارف (٣١٢/٨).

(٢٣) ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، بيروت: دار صادر (مادة صقع).

أصول العربية. فقلت: إن فعلت هذا أحييتنا وبقيت فينا هذه اللغة. ثم آتيته بعد ثلاث، فألقى إلى صحيفة فيها: بسم الله الرحمن الرحيم: الكلمة اسم وفعل وحرف. فالاسم ما أنبأ عن المسمى، والفعل ما أنبأ عن حركة المسمى، والحرف ما أنبأ عن معنى ليس باسم ولا فعل. ثم قال: تتبعه وزد فيه ما وقع لك. واعلم يا أبا الأسود أن الأشياء ثلاثة: ظاهر ومضمر وشيء ليس بظاهر ولا مضمر. وإنما يتفاضل العلماء في معرفة ما ليس بظاهر ولا مضمر. قال أبو الأسود: فجمعت منه أشياء وعرضها عليه، فكان من ذلك حروف النصب، فذكرت منها إن وأن وليت ولعل وكأن، ولم أذكر لكن. فقال لى: لِمَ تركتها؟ فقلت: لَمْ أحسبها منها. فقال: بل هى منها، فزدها فيها»(٢٤).

على أن بعض الحكايات تجعل من أبى الأسود إما مبادراً إلى وضع العلم من عند نفسه، وإما نزولاً عند رغبة آخرين غير الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه. يربط بعضها بينه وبين عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فعلى هذا يكون واضع العلم أبا الأسود بطلب من عمر. وقد قيل: إن عمر رضى الله عنه كتب إلى أبى موسى الأشعرى: «أما بعد: فتفقهوا فى الدين، وتعلموا السنة، وتفهموا العربية... وليعلم أبو الأسود أهل البصرة الإعراب»(٢٥). ويجعل بعضها الآخر عمل أبى الأسود تنفيذاً لرغبة عبد الله ابن عباس(٢٦). كما قيل فى بعضها أيضاً إن أبا الأسود كان يعلم أولاد زياد بن أبيه وهو والى العراقين يومئذ، فجاءه يوماً وقال له: أصلح الله

---

(٢٤) السيوطى، عبد الرحمن بن أبى بكر: تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد محى الدين عبدالحميد، طـ١، مطبعة السعادة بمصر، سنة ١٣٧١هـ/ ١٩٥٢م (ص ١٨١).
(٢٥) إنباه الرواة ١/ ٥١. وينظر العقاد، عباس محمود؛ عبقرية عمر، طـ٥ (ص ٢٤٦).
(٢٦) ينظر: مراحل تطور الدرس النحوى ص ٣٩.

الأمير، إنى أرى العرب قد خالطت هذه الأعاجم وتغيرت ألسنتهم، أفتأذن لى أن أضع للعرب ما يعرفون أو يقيمون به كلامهم؟ قال: لا. قال: فجاء رجل إلى زياد وقال: أصلح الله الأمير توفى أبانا وترك بنون. فقال زياد: توفى أبانا وترك بنون؟ ادعوا لى أبا الأسود. فلما حضر قال: ضع للناس الذى نهيتك أن تضع لهم(٢٧). وحكى أيضاً أن رجلاً فارسياً سئل حين رأوه يقود فرسه: ما لك لا تركب؟ فقال: إن فرسى ضالع. فضحك به بعض من حضره. فقال أبو الأسود: هؤلاء الموالى قد رغبوا فى الإسلام ودخلوا فيه فصاروا لنا إخوة، فلو علمناهم الكلام. فوضع باب الفاعل والمفعول به ولم يزد عليه(٢٨).

ومن دارسى العربية من أنكر نسبة وضع العلم إلى أبى الأسود أصلاً، لكنهم مقارنة بمن أثبت النسبة إليه قلة قليلة. فنسب بعض هؤلاء وضع العلم إلى على بن أبى طالب وحده، وبعضهم إلى عبد الله بن أبى إسحاق أو بعض تلامذة أبى الأسود، ومنهم: نصر بن عاصم، وعبد الرحمن بن هرمز، ويحيى بن يعمر(٢٩).

حكايات التسمية:

يعلل التراث لتسمية العلم بـ «النحو» من داخل حكايات الوضع

(٢٧) وفيات الأعيان ٢/٥٣٦ ـ ٥٣٧.

(٢٨) سبب وضع علم العربية ص ٥٣ ـ ٥٤.

(٢٩) ينظر فى تفصيل أقوال القدماء والمحدثين فى أول من وضع النحو: الطنطاوى، نشأة النحو وتأريخ أشهر النحاة، تعليق عبد العظيم الشناوى ومحمد كردى، طـ٢، سنة ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م (ص ١٢ ـ ١٩)، والحلوانى، محمد خير: المفصل فى تأريخ النحو العربى قبل سيبويه، طـ١. بيروت: مؤسسة الرسالة، سنة ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م (٥٠ ـ٦٥)، مراحل تطور الدرس النحوى ص ٣٥ ـ ٣٩ الدراسات اللغوية عند العرب ص٥٧ ـ ٦٤، المصطلح النحوى ٢٦ ـ ٣٠، المدارس النحوية ص ١٣ ـ ٢٠.

نفسها. فتجيب الحكاية الواحدة أحياناً عن كل الأسئلة، وتفترض اكتمال العلم والعلة الداعية لوجوده والتسمية وعلتها وتزامن ذلك كله معاً، إذ تنص بعض المصادر التى تذكر علة وجود العلم وتصدى على رضى الله عنه وأبى الأسود للمعضلة على علة التسمية أيضاً؛ ذلك أن علياً أمر أبا الأسود بوضع شىء فى النحو لما سمع اللحن، فأراده أبو الأسود ما وضع. فقال على: ما أحسن هذا النحو الذى نحوت فمن ثم سمى نحواً(٣٠). وفى الفهرست: أن أبا الأسود الدؤلى استأذن علياً رضى الله عنه، وقد ألقى عليه شيئاً من أصول النحو أن يصنع نحو ما صنع، فسمى ذلك نحواً(٣١). وقيل أيضاً: إن أبا الأسود وضع وجوه العربية وقال للناس: انحوا نحوه، فسمى نحواً(٣٢). وتشير حكاية أخرى تشرك ابن عباس فى فضل وضع النحو إلى أنه عرف العلم باسمه قبل أن يشرع أبو الأسود فى وضعه؛ إذ أتى أبو الأسود «عبد الله بن عباس رضى الله عنه فقال: إنى أرى ألسنة الناس قد فسدت فأردت أن أضع شيئاً لهم يقومون به ألسنتهم. قال: لعلك تريد النحو، أما إنه حق، واستعن بسورة يوسف»(٣٣).

على أن بعض الحكايات التى تجعل أبا الأسود يستجيب لحادثة اللحن فيضع العلم تتخذ مساراً آخر، إذ تجعله يستجيب لذلك بصورة أخرى غير وضع أبواب النحو، هى وضعه نقط الحركات. من ذلك أن أبا الأسود

---

(٣٠) سير أعلام النبلاء ٨٢/٤. وينظر الذهبى، أبو عبد الله بن أحمد؛ معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار، تحقيق بشار معروف وآخرين، ط١، بيروت: مؤسسة الرسالة، سنة ١٤٠٤هـ (٦٠/١).

(٣١) النديم، أبو الفرج محمد بن إسحاق: الفهرست، بيروت: دار المعرفة، سنة ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م (ص ٥٩).

(٣٢) لسان العرب (نحا).

(٣٣) إنباه الرواة ٥١/١.

«سمع قارئاً يقرأ ﴿ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ﴾(٣٤) فقال: ما ظننت أن أمر الناس قد صار إلى هذا. فقال لزياد الأمير: ابغنى كاتباً لقناً، فأتى به. فقال له أبو الأسود: إذا رأيتنى قد فتحت فمى فانقط نقطة تحت الحرف، فإذا أتبعت شيئاً من ذلك غنةً فاجعل مكان النقطة نقطتين»(٣٥). وقيل: إنه أخذ النحو عن على بن أبى طالب. وكان لا يخرج شيئاً أخذه عن على رضى الله عنه إلى أحد حتى بعث إليه زياد: «أن أعمل شيئاً يكون للناس إماماً، ويعرف به كتاب الله»، فاستعفاه من ذلك حتى حصلت حادثة اللحن فى الآية فعمل النقط. وتروى بعض المصادر أن زياداً لما استعفاه أبو الأسود وجّه رجلاً، وقال له: اقعد فى طريق أبى الأسود، فإذا مر بك فاقرأ شيئاً من القرآن وتعمد اللحن فيه. ففعل الرجل، ولما مر به أبو الأسود قرأ الآية السابقة ملحونة، فاستعظم ذلك أبو الأسود، واضطر لتحقيق رغبة زياد. ثم إنه طلب منه أن يرسل إليه ثلاثين رجلاً، واختار منهم واحداً لكى يضع معه نقط المصحف(٣٧).

ولكون استجابة أبى الأسود لحادثة اللحن بوضع الحركات، لا بالتبويب النحوى، أنسب فى الظاهر وأكثر ملاءمة لسياق بعض الحكايات التى توردها، ولكونها أيضاً قد تبدو لأول وهلة أقرب إلى «طبيعة الأشياء» ـ بعبارة الدكتور شوقى ضيف ـ وأهون من تصور وضع علم من العلوم بالكامل، ذهب ضيف إلى أن أبا الأسود لم يضع النحو بل وضع النقط. والاشتباه الذى حصل لمن أشاروا إلى وضعه العلم إنما كان بسبب إشارة

(٣٤) من الآية ٣ من سورة التوبة.
(٣٥) سير أعلام النبلاء ٨٣/٤. وينظر الدانى، أبو عمرو عثمان بن سعيد: المحكم فى نقط المصاحف، تحقيق عزة حسن، ط٢، دمشق: دار الفكر، سنة ١٤٠٧هـ (ص٦ ـ ٧).
(٣٦) الفهرست ص ٥٩.
(٣٧) انظر أخبار النحويين لابن أبى هاشم ص ٣٧ ـ ٣٩.

الرواة إلى أنه وضع «علم العــربيـــة» وهم يعنون بذلك أنه وضع نقط حركات الإعراب. فيكون بهذا علم العربية غير النحو، ويكون أبو الأسود تبعاً لهذا الاستنتاج واضع علم العربية وليس واضع النحو(٣٨). غير أن البعيد عن «طبيعة الأشياء»، بل هو أبعد شيء عنها، أن يذهب التفكير بأبى الأسود فى معضلة اللحن الشفوى إلى إيجاد حل كتابى؛ إذ لن يؤدى علمه هذا الذى اخترعه ـ على فرض صحة الاختراع ـ إلا إلى وقاية القراء من اللحن دون المتكلمين.

بوادر رفض الحكايات:

الملاحظ فى البحوث والدراسات التى تناولت التأريخ لعلم النحو فى عمومها أنها تركن إلى الحكايات ركوناً شبه كامل وتسلم بصحتها فى الأغلب. ومع هذا وجد من الدارسين من مال إلى عدم الأخذ بمضامين كثير من الحكايات والمرويات فى المسألة، غير أن عمومهم ممن ضعف شيئاً مما روى أو أنكره لم يكونوا ينطلقون فى التضعيف أو فى الإنكار من كون مصدره حكاية فقط. فمثلاً نقل الدكتور عوض القوزى عن محمد سحلول قوله فى رسالة علمية مقدمة إلى الأزهر: «والرواية التى تقول: إن عمر بن الخطاب هو الذى أمر أبا الأسود بوضع النحو، كما سجلها ابن الأنبارى ذات خطأ تاريخى تحتاج إلى تصحيح». ولم يتبين القوزى وجه هذا الخطأ(٣٩). والأرجح أن محمد سحلول إنما كان فى إنكاره يوازن تأريخياً بين عهد خلافة عمر وما يمكن أن يشير إلى عجز أبى الأسود عن أداء المهمة، كصغر سنه مثلاً، وليس لسبب آخر فيما أرى.

---

(٣٨) المدارس النحوية ص ١٦.

(٣٩) المصطلح النحوى ص ٢٩.

على أن من الباحثين من أعلن الشك فى المرويات والحكايات التى تنسب وضع العلم إلى أبى الأسود، أو الشك فى بعض مضامين الروايات الواردة فى هذا الباب فقط، على اختلاف واضح بينهم فى قدر الشك، وفى منابع التردد فى الأخذ بها أو بعض ما اشتملت عليه. فالباحثون الذين يثبتون نسبة الوضع إلى أبى الأسود وينافحون عن هذه النسبة أنفسهم ربما عارض بعضهم بعض مضامين الحكايات التى تبعد عن المعقول فى ذكر أشياء لا يصح عقلاً وجودها فى زمن بدايات العلم، كالمصطلحات العلمية (الفاعل والمفعول والتعجب والحروف الناسخة وتعريفات الاسم والفعل والحرف) التى لم تتضح تمام الوضوح فى كتاب سيبويه المتوفى بعده بنحو قرن[٤٠]. أما من يعلن منهم صراحة عدم القطع بشىء فى الواضع، أو ينكر نسبة الوضع إلى أبى الأسود، فيستند كل منهم إلى مسوغ ما لذلك. فأحمد أمين مثلاً يشك فى نسبة وضع العلم إلى أبى الأسود، وينطلق فى ذلك من تضارب الروايات وتناقضها؛ إذ من الروايات ما ينسب وضع النحو إلى أبى الأسود، ومنها ما ينسبه إلى نصر بن عاصم، أو إلى ابن هرمز، أو إلى على بن أبى طالب رضى الله عنه. ويرى أن قانون «النشوء والارتقاء» الطبيعى يوجب أن يسبق وضع الحركات وضع النحو، فيرجح تبعاً لذلك نسبة وضع الحركات إلى أبى الأسود فيما عرف بالنقط[٤١]. ويبدو أن شوقى ضيف تأثر بهذا الرأى كما اتضح مما تقدم، ويبدو أنه سمى «قانون النشوء» الوارد فى عبارة أمين بـــ

(٤٠) مراحل تطور الدرس النحوى ص ٤٠.

(٤١) أمين، أحمد. ضحى الإسلام، ط٨، مكتبة النهضة المصرية (٢/ ٢٨٥). ويتضح هنا أن أحمد أمين يثبت حكاية أبى الأسود من حيث ينفيها؛ لأن مسوغ النفى عنده هو تضارب الحكايات وعدم استقرارها على واحد بعينه. فإذاً لو اتفقت كلها فى نسبة العلم إلى أبى الأسود لأخذ بها.

«طبائع الأشياء». وإلى سبب قريب إلى حد ما من هذا السبب يشك أيضاً إبراهيم مصطفى في هذه النسبة؛ إذ يوافق أحمد أمين في اقتضاء قانون النشوء نسبة نقط الحركات دون وضع النحو إلى أبي الأسود. ويضيف في استبعاد فكرة إنشاء أبي الأسود علم النحو عدم إشارة سيبويه إليه في الكتاب، مع أنه ينسب الآراء إلى الخليل ويونس وأبي العلاء بن عمرو والأخفش الأكبر وابن أبي إسحاق. فلما رأى سيبويه ينتهي إلى ابن أبي إسحاق ولا يرتفع إلى من سبقه، مع ما أثر في التراث من أنه أول من علل النحو ومد القياس، رجح أن يكون هو الواضع[٤٢]. ويتدرج الأمر في هذا السياق ببعض الباحثين إلى أن يقر بعضهم كالرافعي بأن «تأريخ وضع النحو لا سبيل إلى تحقيقه البتة»[٤٣].

أما المستشرقون فهم الذين أعلنوا في صراحة ووضوح رفض الحكاية وعدم الركون إليها في القطع بشيء من مسائل تأريخ العلم، وإن عد بعض الباحثين العرب ذلك متهم، من قبيل التعصب ضد العرب والتنكر لجهود أبي الأسود وتلاميذه[٤٤]، أو من قبيل إثبات أمر آخر ينفي الفضل للعرب بالسبق إلى اختراع العلم، هو تأثرهم بالأمم الأخرى[٤٥]، أو أن «هذا الرأي التشكيكي يلغي أثر القراءة القرآنية الأساسي في نشأة النحو»[٤٦]. ولعل أشهر من صرح من المستشرقين بأن حكايات أبي الأسود

---

(٤٢) مصطفى، إبراهيم، أول من وضع النحو. مقالة منشورة في مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، ع ١٠ (ص ٥ ـ ٦).

(٤٣) تاريخ آداب العرب ١/٣٢٥.

(٤٤) السابق ص ٢٩.

(٤٥) انظر مراحل تطور الدرس النحوي ص ٤٣ ـ ٤٤.

(٤٦) السابق ص ٢٤.

السالفة ما هى إلا من قبيل «الأساطير» بروكلمان(٤٧). ومنهم أيضاً ركندورف، حيث «اعتبر القصص الوارد عنه ملفقاً وباطلاً، فقال: وليس حقاً ما يقال: إنه واضع أصول النحو العربى. أما القصص التى تروى عنه فليست مما يعلى قدره. ولكن يؤخذ من أشعاره أن بعض هذه القصص على الأقل قد أحكم تلفيقه»(٤٨). وكذا يوهان فك فى كتابه «العربية»(٤٩)، ولشنستر واضع مادة «نحو» فى دائرة المعارف الإسلامية(٥٠)، وفون كريمر(٥١)، وكيس فرستيغ(٥٢)، وروفائيل تالمون(٥٣).

النشأة بلا حكاية:

ارتبط ما يغمض على الإنسان ويثير فيه قلق السؤال بسعيه إلى تفسيره، ولا سيما ما هو من الأمور مهم عنده مؤثر فى حياته. وكثيراً ما تكون «الحكاية» هى الإجابة التى تريحه من عناء السؤال، وتكون بمثابة الملجأ الأخير له بعد حيرته وقلقه. وترتبط نشأة الظواهر وبدء وجودها

---

(٤٧) بروكلمان، كارل. تاريخ الأدب العربى، ترجمة عبد الحليم النجار، ط٣، القاهرة: دار المعارف (٢/ ١٢٣).

(٤٨) المصطلح النحوى ص ٢٩.

(٤٩) فك، يوهان. العربية، ترجمة عبد الحليم النجار، دار الكتاب العربى، سنة ١٩٥١م (ص١٠).

(٥٠) مراحل تطور الدرس النحوى ص ٤٣.

(٥١) كريمر، فون. الحضارة الإسلامية ومدى تأثرها بالمؤثرات الأجنبية، تعريب مصطفى بدر، دار الفكر العربى (ص ٩٠). وينظر المصطلح النحوى ص ٢٩، مراحل تطورر الدرس النحوى ص ٤٣.

(٥٢) فرستيغ، كيس. اللغة العربية تاريخها ومستوياتها وتأثيرها، ترجمة محمد الشرقاوى، ط١، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، سنة ٢٠٠٣م (ص ٨٠ ـ ٨١).

(53) Talmon, Rafael (1985), "Who was the first Arab grammarian? A new approach to an old problem". SHAGI, PP. 128 - 129.

بصفة خاصة بالحكاية التى تحكى ذلك البدء وتصفه، ربما لأن زمن البدايات ماضٍ بعيد عن الإنسان لا يستطيع الوقوف عليه، ولا طريق إلى حله وجلاء غوامضه إلا بها. وحكاية البدء هذه تحديداً هى ما يسمى فى علوم السرد الحديثة بـ «الأسطورة»، تمييزاً لها مفهومياً عن أنواع أخرى من السرد تختلف من حيث الشكل أو المضمون أو الخصائص الصنفية، فتختلف لذلك فى التسمية الاصطلاحية[٥٤]. والأسطورة من حيث هى حكاية تفسير، وحكاية بدء ونشأة «كانت تقوم بوظيفة مماثلة لتلك التى أصبح يقوم بها العلم بعد ذلك. وكانت هى الوسيلة الطبيعية لتفسير الظواهر فى العصر السابق على ظهور العلم»[٥٥]. وغالباً ما تكون الأسطورة المفسرة تتماشى فى بنيتها وتركيبها مع غايات الإنسان محققة لأمانيه، وتسير مع تصوره هو عن طبيعة الشىء أو الظاهرة التى تفسرها أسطورته التى صنعها.

أسئلة النشأة كلها لا يمكن أن تجيب عنها الحكاية وحدها إجابة علمية يتكأ عليها منهجياً؛ لأن القصة التى تحكى عن أية نشأة إنما تحكى بعد زمن النشأة لا فى الزمن نفسه، ولا تحكى إلا بشروط زمن إنتاج

---

(٥٤) ويفرق الدارسون اليوم مصطلحياً بين الأسطورة والخرافة وحكايات العجيب والغريب وغيرها بتمييز الأسطورة بخصائص منها: أنها حكاية تفسير، وأنها حكاية بدء ونشأة. ينظر إلياد، مرسيا. مظاهر الأسطورة، ترجمة نهاد خياطة، ط١، دار كنعان للدراسات والنشر، سنة ١٩٩١م (ص ١٠)، ويريست، جون فى: الأسطورة والحلم فى الكتاب المقدس العبرى، ترجمة نذير جزمانى، منشور ضمن كتاب (الأساطير والأحلام والدين) تحرير جوزيف كامبل، ط١، دمشق: دار الكلمة ودار الشفيق، سنة ٢٠٠١م (ص٤٧ـ٥٠)، وينظر أيضاً: مبحث الأسطورة والخرافة من كتاب التفكير العلمى لفؤاد زكريا، ط٣، الكويت: منشورات ذات السلاسل، سنة ١٩٨٩م (ص ٦٧).

(٥٥) التفكير العلمى ص ٦٧.

الحكاية لا بشروط زمن النشأة، ولذلك لابد أن تكون «أسطورة» بالضرورة. وعند النظر فى بنية حكايات نشأة النحو، كما هو الحال فى حكايات نشأة أى شيء آخر، لابد أن تتجلى أمارات الأسطورية فيها. وأظهر أمارات الأسطورية فى حكايات نشأة النحو أنها لا تظهر إلا حال النحو بعد اكتماله علماً وبعد أن نضج واستوى، لا حال الزمن الذى نشأ فيه أو الذى سبقه.

من بين أهم ما استقر فى أذهان المشتغلين بالنحو والمتصلين به بصورة جلية واضحة وقت ظهور الحكاية - ولابد بالضرورة أن يكون أحد أهم الأمور التى تجلت فى بنيتها؛ لأنه مما أسهم فى إنتاجها على صورتها التى ظهرت بها - غرض النحو الأساسى الذى وجد لأجله وهو صيانة اللسان من الخطأ واللحن. وتجلت لذلك حكاية اللحن فى حكاية الوضع ولازمتها وامتزجت بها. هذا مع أن أغراض أى علم لا يمكن عقلاً أن تقوم فى ذهن أحد من الناس قبل أن يوجد ثم يسارع فى الحال إلى اختراعه وإنشائه ليحقق ذلك الغرض. ثم فضلاً عن ذلك كله ليس غرض النحو شيئاً من الصيانة المزعومة، ولم يقم العلم، بل لا يعقل أن يكون قد قام، لمقاومة اللحن أصلاً؛ لأن ذلك مما تنفيه طبيعة نشوء العلوم كافة، وليس النحو بدعاً من بينها. ذلك أن العلوم كلها إنما تنشأ من نظرات متفرقة متأملة فى الظاهرة وفى أسرار نظامها بدافع الاكتشاف والمعرفة، بقطع النظر عما يحققه العلم فى المستقبل من منافع بعد أن يكتمل على صورة ما غيبية مجهولة لا علم لأحد بها فى زمن البدايات وفى أوائل أزمان التأملات(٥٦). وتمضى أزمان متعاقبة من النظرات والتأملات لا

(٥٦) يستبعد بعض الباحثين أن يكون قد انحل نظام اللغة وفسدت الألسنة - مما يستدعى إنشاء علم يقاوم الفساد - بهذه السرعة وفى فترة لا تتجاوز ثلاثين سنة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم. انظر: المزينى، حمزة بن قيلان. التحيز اللغوى وقضايا أخرى، ط١، سلسلة كتاب الرياض، سنة ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م (ص ٥٢).

يرى أحد صورة العلم وملامحه مكتملة ولا ناقصة، ولا قدرة لأحد على معرفة تلك الملامح التى سيكتب لها الظهور إن تتابعت الجهود وتراكمت وتنامت، وسيقضى عليها إن لم يكتب لها ذلك، دون أن يعلم أحد ماذا كان سيحدث لو تتابعت أو نمت.

ومن ملامح أسطورية الحكاية أنها أشاعت فى بنيتها التى نهضت عليها بين عدد من الناس معرفة مسبقة لغاية العلم قبل إنشائه ــ فضلاً عن تصور العلم وأبوابه ومصطلحاته ـ بما يشعر أنها تكاد تكون معرفة مشاعة، وأنه لا يستنكر أن يعرف عدد منهم فى مكان واحد وزمان واحد مدى الحاجة لعلم ما من العلوم ويعقدون العزم على إنشائه، أو يكلفون من أرادوا بالقيام به. ولو جعلته شيئاً خاصاً ينبئ عن عبقرية وقدرة فذة عند شخص واحد، لربما سايرناها فى ذلك ــ ولو جدلاً ـ فنضفى على أبى الأسود أو على على بن أبى طالب قدرات ليست لأحد. كما أشعرت بشيوع ما يشبه اليقين الجازم المسبق بجدوى ما يكتبه رجل واحد فى بيئة يعلم من أحوالها فى ذلك الوقت أنها أمية لا تقرأ، ومنعزلة لا سبيل إلى انتشار ما يكتبه ذلك الشخص. بل إن ما يكتبه سيكون بحسب منطق الحكاية مؤثراً بالغ التأثير فيقاوم اللحن الذى جاء نتيجة مخالطة العرب للعجم فأفسد ألسنتهم. أو أنها علمت أن التأثير سيكون بتبنى هذا المشروع وسيلتف حوله أعداد كبيرة من الناس وحلقات درس وغير ذلك مما حصل بعد.

لقد صار من الثابت اليوم بين المشتغلين بالفكر العلمى أن توهم إمكان تصور الغاية من الشىء قبل وجوده ومن الظاهرة قبل حدوثها سمة من سمات العقل غير العلمى. يقول فؤاد زكريا فى التفكير العلمى: «وأما الغاية فلا يأتى دورها إلا بعد أن يتم إيجاد الشىء أو الظاهرة بالفعل... وكان من المستحيل أن يقوم علم حقيقى فى ظل التصور الغائى للطبيعة؛

لأنه يصرف الأنظار عن كشف الأسباب الحقيقية، ويوجهها نحو طبع الصورة البشرية على أحداث الطبيعة... لذلك كان من الطبيعي أن تستبعد الأسباب الغائية، من مجال البحث العلمي»[٥٧]. بل لقد أثبت المشتغلون بالعلم أيضاً أن التفسير الغائي للظواهر حتى بعد وجودها يصرف النظر عن تصور طبيعتها على حقيقته، فالأجرام السماوية القائمة المشاهدة كالشمس والقمر والنجوم ونحوها قد يذهب العقل الأسطوري إلى طمس المعرفة بها إذا ربط حقائقها بغاياتها فقط؛ إذ يمكن أن يفسر شخص ما وجود الشمس بأنها لتدفئ جسمه، والقمر ليضيء طريقه وهو سائر بالليل، والنجوم ليهتدي بها فلا يضل، ونحو ذلك. في حين هو يتكلم في حقيقة الأمر عن طرق استثماره للظواهر الطبيعية الموجودة لحل مشكلاته والانتفاع بها في حياته. وهذه صورة تكاد تنطبق على كثير ممن يتكلمون عن علم النحو من خلال استثماره بعد وجوده في تجنب الخطأ واللحن ومعرفة الصواب والخطأ بتعلمه وحذقه، ويظنون أنهم يتكلمون عن النحو وطبيعته، وأنه إنما وجد لصيانة اللسان من اللحن ولمعرفة الصواب والخطأ في حين أنه ليس كذلك[٥٨]. وتبعاً لذلك أمكن تصور وجود العلم ونشأته

---

(٥٧) السابق ص ٤٥.

(٥٨) أدرك عدد من الدارسين العرب والمستعربين أن علم النحو العربي لم يقم أبداً في بداياته الأولى على أيدي علمائه الكبار كالخليل وسيبويه على مبدأ معياري لمعالجة الصواب والخطأ في اللغة. بل كان في صورته تلك بعد نهوضه واكتمال أركانه كما يظهر في أول كتاب فيه (كتاب سيبويه) تحليلاً دقيقاً للنظام الذهني اللغوي ومعرفة العربي للغته. ينظر: المزيني، حمزة. مراجعات لسانية (الجزء الثاني)، كتاب الرياض، العدد ٧٥ ـ فبراير ٢٠٠٠م (ص٣٠٣). وينظر ص ٣٠٦ فما بعدها. والمزيني، حمزة. مكانة اللغة العربية في الدراسات اللسانية المعاصرة مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، العدد ٥٣ ـ ذو القعدة ١٤١٧هـ ربيع الآخر ١٤١٨هـ (ص٥١ـ٤٢). وانظر المقارنة التي عقدها «أوين» بين فكرة العامل في النحو ومدرسة التعلق الحديثة ص ٤٣. وانظر بصفة خاصة منهج سيبويه كما يراه «أوين» مقارنة بالمدرسة البنيوية الأمريكية في الثلاثينيات والأربعينيات ص٤٩. وعياد، شكري. قراءة أسلوبية في كتاب سيبويه. منشور ضمن وقائع مؤتمر قراءة التراث النقدي في كتاب (قراءة جديدة لتراثنا النقدي) عن نادي جدة الأدبي، سنة ١٤٠٩هـ (٢/٨٠٤).

رد فعل لحادثة لحن يستوجب حدوثها نشأته ووجوده. لذا يمكن القول: إن تصور منتجى الحكاية لطبيعة علم النحو من خلال غاياته القائمة فى أذهانهم كان عنصراً مهيمناً على البنية التركيبية للحكاية ومحدداً لصورتها الذى ظهرت به على النحو الموصوف آنفاً. وجاءت الحكاية (الأسطورة) متماشية مع غايات حاكيها محققة لأمانيه كما هو حال كل أسطورة.

غير أن فى قضية (الحكاية/ الأسطورة) هذه جانباً آخر هو أنها كما صبغتها تصورات واضعيها عن علم النحو من خلال غاياته كما وصفنا، صبغت هى تصورات متلقيها عن طبيعة علم النحو من خلال غاياته. أى أن المتلقين أصبحوا يعرفون النحو من خلال الحكاية بعد على أساس أنه علم صيانة اللسان من اللحن، لا أنه علم تحليل الظاهرة اللغوية ومعرفة النظام اللغوى القائم فى عقول الجماعة. فأصبحت بذلك الحكاية بالغة الأثر فى بلورة التصورات عن العلم نفسه. وعلى هذا تكون هنا كما أنها «مؤسَّسَة» بناء على تصور معين لمفهوم النحو هى أيضاً «مؤسِّسَة»(٥٩) للمفهوم فى الوقت نفسه.

---

(٥٩) فى التراث العربى حكايات نشأة غزيرة شبيهة بحكايات وضع علم النحو لا تكاد تقع تحت حصر. يمكن أن نسميها جميعاً بـ «الحكايات المؤسِّسَة»، تسهم فى بلورة التصورات عن المفاهيم التى تصف هذه الحكايات نشأتها عند متلقى الحكاية، بحيث لا يذهب متلقى الحكاية إلى تعديل فهمه أو تصوراته عن هذه المفاهيم بسبب تثبيت الحكاية للمفهوم على صورة ما معينة. هذا مع أنه ما أملى الحكاية على حالها المحكية هى بها إلا فهم ما لصورة المفهوم قام فى ذهن الحاكى؛ فهى إذاً مؤسَّسة ومؤسِّسة فى آن معاً. وقد قاربنا ظاهرة «الحكاية المؤسِّسة» فى التراث فى مقالة منشورة بجريدة الرياض. انظر: الغامدى، محمد ربيع. الحكاية المؤسسة، ملحق ثقافة اليوم، جريدة الرياض، العدد (١٣٢٧١) فى ٧ رمضان عام ١٤٢٥هـ، والعدد (١٣٢٧٨) فى ١٤ رمضان عام ١٤٢٥هـ.

وفى الحكاية ـ خلاف ما مر من «الغائية» المتحدث عنها فيما سبق ـ من المظاهر ما يوضح بجلاء الأسطورية فيها، ويقوى القول بأنها لا تظهر إلا ما استقر فى أذهان الدارسين عن علم النحو فى العصور المتأخرة بعد نشأته بسنوات طوال(٦٠). من ذلك أن الدلالة المشتركة فى عبارة واحدة للتعجب والاستفهام، بحيث لا يفرق بين الدلالتين إلا حركة الإعراب وحدها، مما شاع واشتهر فى كتب النحو المتأخرة عند الحديث عن أهمية الإعراب وإيضاح المعنى به. ويمثلون غالباً لذلك بمثال شبيه بما ورد فى الحكاية(٦١)؛ ذلك لأن النحو فى صورته المستقرة المتأخرة لم

---

(٦٠) يمكن النظر من هذه الزاوية إلى ما حكى فى الزمن المتأخر عن النحو وعن غيره بحيث يرى أطرافاً مما استقر فى الأذهان عن المحكى عنه. من ذلك مثلاً ما يعكس ما استقر عند الناس من استبداد علماء النحو بعلم صعب اللغة والمصطلح، وأنه صار صناعة لا يجيدها إلا فئة قليلة هم النحاة، فأنتج ذلك ما يحكى عن بعضهم، كالفراء وغيره، من تعمد إخفاء العلم وإحاطته بلغة صعبة للاسترزاق به.

(٦١) يمثل النحاة بعدد من الأمثلة المصنوعة لخروج معنى العبارة من حال إلى حال بتغير العلامة الإعرابية فيها. ويمثلون لذلك غالباً بقوله: «لا تأكل السمك وتشرب اللبن» بفتح باء (تشرب) وضمها وكسرها؛ لاشتراك الواو بين العطف والمعية والاستئناف. ويمثلون أيضاً بـ «ما أحسن زيد، وما أحسن زيد، وما أحسن زيداً» بسبب اشتراك (ما) بين النفى والاستفهام والتعجب وغير ذلك. وترد هذه المسائل فى سياق قية الجواز النحوى واشتراك الألفاظ ومن ثم الحاجة إلى العلامة الإعرابية لتعيين المعنى؛ لأنها الأمثلة التى ينطبق عليها تماماً هذا الأمر. انظر: الطلحى، مراجع عبد القادر بالقاسم. الجواز النحوى ودلالة الإعراب على المعنى، منشورات جامعة قاريونس بليبيا (ص ٥٣٤ ـ ٥٣٥). وكذا يوردون من الآيات ما يمكن أن يؤدى تغيير الحركات فيه إلى خطأ كبير يخشى من أن يؤدى إلى الكفر أو الشرك نحو ما ورد فى الحكاية وهو قوله تعالى «إن الله برىء من المشركين ورسوله»، وقوله تعالى «إنما يخشى الله من عباده العلماء». وهذه مواطن مغرية بإنتاج حكايات تظهر أهمية المعرفة بها. ويمكن هنا أن نستحضر مثلاً ما يحكى عن مناظرة الكسائى وأبى يوسف القاضى عند هارون الرشيد فى الفرق بين اعتراف المتهم بقوله (أنا قاتل غلامك) بالإضافة وقوله (أنا قاتل غلامك) بالتنوين، وما يترتب على ذلك من أحكام قضائية غفل عنها القاضى لجهله بالنحو وعرفها النحوى.

يدرج النغمة الشفوية الفارقة بين أسلوبى الاستفهام والتعجب (التنغيم)، واعتمد فى تحليله العبارات والنماذج اللغوية المختلفة على الحركات الإعرابية فقط. هذا في حين أن حكاية أبى الأسود مع ابنته لو افترضنا صحة حدوثها ونقلها بعد لن تتجاهل النغمة الفارقة بكل تأكيد.

ومن ذلك أيضاً ما مر سلفاً من وقوف بعض الباحثين عند استقرار المصطلحات والحدود والتقسيمات والاسم الاصطلاحى للعلم فى الحكاية فى حين أنها لم تتضح وتستقر بعد عصر الحكاية بسنين طويلة. لكن الملاحظة الجديرة بالعناية هنا هى ملاحظة أبداها الدكتور صاحب أبو جناح فى مصطلحى الفاعل والمفعول الواردين فى الحكاية بقوله: «أليست كتب النحويين المتأخرين التى اعتادت أن تبدأ بالمرفوعات ثم المنصوبات هى التى أوحت لواضعى الخبر بأن أبا الأسود بدأ بباب الفاعل ثم المفعول حين شرع فى التفكير فى وضع النحو؟»(٦٢). وتتبع الباحث أيضاً تناقضات أخرى من نحو إيراد الحكايات أخطاء فى المفردات، وهو ما يتعارض مع اقتضاء اختراع علم يدرس التراكيب، ومن غير ذلك(٦٣). ولا أرى داعياً لتتبع الغرائب والمتناقضات فى الحكاية؛ لأن كل ما فيها غريب متناقض بالضرورة كما مر. منه ما يتعلق ببناء الحكاية الذى به لا تكون إلا مجرد حكاية للإمتاع والمؤانسة، لا أنها جزء من التأريخ المنهجى للعلم. كأن نسأل مثلاً عمن نقل إلى الناس هذه المحادثة الخاصة التى جرت بين ابنة وأبيها، ومتى أصبحت هذه المحادثة ذات جدوى وعبرة وصلة بالعلم بحيث تستحق أن تتذكر فلا تندثر بين محادثات الرجل وأهل بيته على طول الزمان؛ لأن ذلك لن يحصل بالضرورة إلا

---

(٦٢) أبو جناح، صاحب: دراسات فى نظرية النحو العربى وتطبيقاتها، ط١، عمان: دار الفكر للطباعة والنشر ولتوزيع، سنة ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م (ص ٩).

(٦٣) السابق ص ٩ ـ ١٩).

بعد اكتمال العلم وتبلور صورته ومفهومه فى الأذهان، ومن ثم تتضح جدوى الربط بين الحادثة والعلم. ومنه ما يحتمل فى دلالاته أن يكون قد أملته فقط عصبيات مذهبية تحاول نسبة إنجاز إنشاء العلم إلى أشخاص بأعيانهم أو طوائف معينة(٦٤).

من هنا لابد أن تزول الغرابة ويبطل العجب من وجود المتناقضات التى حار فى الخروج منها الدارسون. إذ إن أكثرهم قد استسلم للحكاية، وربما وقف فقط عند بعض الغرائب والمتناقضات فيها حائراً فى حلها. وكان يمكن للغرائب وعدم المعقولية فى حكايات نشأة النحو التى لابد منها بالضرورة أن تحل بمعرفة السر فى حدوثها جملة لا تفصيلاً. ومن المدهش حقاً للمتأمل فى موقف الباحثين من هذه العجائب والغرائب أن بعضهم يقف عندها وقوفاً يسيراً لا يكاد يجدى، يسائل الجزئيات دون الكليات. ومنهم من مر بها سريعاً دون وقوف. هذا إلى عدد كثير جداً من الدارسين الذين ربما استولت عليهم متعة القص واستغرقتهم لذته عن التأمل فيه(٦٥)، أو أنهم لا يرون إلى رد ما أثر فى التراث سبيلاً.

---

(٦٤) تناول بعض الدارسين الشك فى الحكايات التى تنسب الفضل فى وضع العلم إلى أبى الأسود أو على بن أبى طالب رضى الله عنه من هذه الزاوية. ينظر مثلاً قول شوقى ضيف: إن هذا الأمر ربما يكون الدافع إليه نسبة الفضل إلى شيعى متقدم، فى المدارس النحوية ص ١٦، ورد محمد آل ياسين عليه فى الدراسات اللغوية عند العرب ص ٦٤. وأمر آخر تجد الإشارة إليه فى هذا السياق هو أن الحكاية جديرة بتأمل جوانب فيها تعكس نفسيات حاكيها ومتناقليها كنظرتهم لغير العرب ممن يسمون فيها بالأعاجم أو الحمراء، ومفاهيم أخرى كطبيعة اللغة والفصاحة والموقف من السلطة ومن بعض الرموز ونحو ذلك.

(٦٥) من اللافت أن مبحث تأريخ النحو على وجه الخصوص تحول فى الدراسات العربية إلى ما يشبه التسلية وتزجية الوقت بالظرف والحكايات الطريفة، فمباحثه فى أكثر الكتب التى تعرضه تكاد تكون استراحة من عناء الجد فى قراءة المسائل والقضايا الجافة الأخرى. انظر مثلاً: مبحث الاحتجاج فى كتاب سعيد الأفغانى، فى أصول النحو، بيروت: المكتب الإسلامى، سنة ١٤٠٧هـ (ص ٦ ـ ١٥)، وانظر بصفة خاصة قوله فى ص ١٣ عن حكاية مسلية من التى تحكى فى نشأة النحو: «ولا بأس فى إيرادها ففيها طرافة وفيها ظرف».

وبعد فإن السؤال الجديد بأن يسأل الآن: هل يمكن بحث نشأة العلم بعيداً عن الحكاية وبلا ضغط منها؟ تقتضى الإجابة عن هذا السؤال الإقرار أولاً بأن بعض أحاديث النشأة فى العموم لا كلها ينبغى أن يعد من فلسفة العلوم لا من العلم، ولاسيما فى الظواهر التى وجدت ولا سبيل إلى وجود آخر لها أو لمثلها. وذلك مثل حديث نشأة ظاهرة «اللغة» على سبيل المثال؛ إذ أخرجها علماء اللغة اليوم من البحث اللغوى العلمى بعد أن كانت فى الماضى جزءاً منه إلى فلسفة اللغة(٦٦). أما تأريخ العلوم عامة وتأريخ علم النحو خاصة فيشترك مع بحوث نشأة الظواهر فى أشياء ويختلف عنها فى أشياء أخرى. ويقتضى البحث العلمى المنهجى الوعى بالمشتركات والمختلفات.

يشترك تأريخ العلم مع تأريخ نشأة الظواهر، فيعد لذلك غائباً مجهولاً، فى غياب الملاحظات والنظرات الأولى التى كونته حتى أصبح مكتوباً مسجلاً فى مصادر العلم الأولى. فبالضرورة لابد أن يكون ما قبل أول وثيقة مسجلة فى العلم مجهولاً، عدا دلالة ما تنص عليه الوثيقة الأولى من نقول ومقولات شفوية يمكن استنتاج ملامح مرحلة ما من العلم منها. ولهذا يمكن القول إن الوثيقة الأولى فى علم النحو هى كتاب سيبويه. ويمكن بناء على ما فى كتاب سيبويه من أقوال ونقول عن سابقيه

---

(٦٦) ينظر: أنيس، إبراهيم. دلالة الألفاظ، مكتبة الأنجلو المصرية، طـ٤، سنة ١٩٨٠م (ص ١٣). وعبد التواب، رمضان. المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوى، طـ٢، القاهرة، مكتبة الخانجى، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م (س ١٠٩ ـ ١٢٤). ويلحظ أن بحث نشأة اللغة انحصر فى فرضيات، إما تخمينية بحتة، وإما بدلالة مستنتجة من وثائق ونقوش، وإما بمقارنة ظواهر لغوية عرفت مظاهر بعض مراحلها، وإما مقيسة على وجوه شبه فى ظواهر أخرى كلغة الأطفال مثلاً، وهكذا.

أن نقبل منهجياً من أى باحث أن يستنتج ما يرى بعقله وما يوصله إليه اجتهاده أن الأقوال والنقول تلك تدل عليه، وبناء على ذلك يرسم ملامح علم نحو ما قبل سيبويه. ولهذا نتفهم من حيث المبدأ رأى إبراهيم مصطفى الذى يستند فيه إلى أعلى من ذكر فى كتاب سيبويه، وهو ابن أبى إسحاق، دون أن نلزم أنفسنا بالأخذ به على إطلاقه.

أما ما يختلف به حديث نشأة العلوم عن أحاديث النشأة الأخرى فهو أن له نظائر من العلوم التى لا تتوقف عن النشأة والتفرع واندثار بعضها وحلول علوم أخرى بديلة منها وهكذا. وهنا لابد أن نقيس كيفيات النشأة الأولى لأحدها على نشوء غيره مما نشأ وترعرع تحت أعيننا أو فى الوقت القريب منا. وأن نقيس المقبول منها على ما يقبل فى غيره ونرد ما يرد فى غيره. ولذا نستطيع القول: إن تجربة نشأة العلوم التى نعرفها تنفى أن يعزم فرد أو جماعة على إنشاء علم من العدم لتحقيق غرض ما قائم فى الذهن وقتذاك. ولا ضرورة فى هذه الحال أن نلجأ فى عصر العلم إلى الحكايات والأساطير لإثبات شيء من ذلك أو نفيه.